

الذاكرة ، والنراث ، والتاريخ* : التركز العثماني في العالم العربي (كارل بربير)

ترجمة :
عبد اللطيف الحارس

في الوصف الذي يقدمه لنا تيوسيديس عن كيفية رؤية الأثينيين لأحداث حرب البلبونيز يقول: «لقد كانت مسألة شعب يكتفٍ ذكرياته بما يتلاءم مع معاناته»⁽¹⁾. ولم يكن الأثينيون، بأية حال، حالة شاذة في هذا الأمر، فشعوب أخرى ما فتئت وحتى يومنا هذا، تلائم ذكرياتها ليس فقط مع ما تعانيه، وإنما أيضاً مع ما تحمله من أفكار مسبقة، آمال، أو مخاوف. مثال جديد على ذلك يقدمه لنا الصحافي الأميركي ب. أورورك P. O'Rourke، في مجموعة دراسات واسعة الانتشار (يتعلق أكثرها بحرب الخليج سنة 1991)، ويوجه أورورك تهكمه على الخلفية العثمانية للشرق الأوسط الحديث: «لغاية 1918 كانت الجزيرة العربية تحت حكم الامبراطورية العثمانية، وسميت كذلك لأنها تمتلك نفس كمية الذكاء والحيوية لخشب مسندة»⁽²⁾. ويردد أورورك هنا وببساطة موضوعاً من الكتابات التاريخية القومية التي بقيت مهيمنة منذ نهوض

* ترجمة لمقال: Karl Barbir, Memory, Heritage, and History: The Ottoman Legacy in the Arab World in Imperial legacy: The Ottoman Imperint on the Balkans and the Middle East. Edit B. Karl Brown. (Columbia University Press, New York, 1996, pp. 100-114.

Thucydides, History of the Pelapponesian War, 11. Rex Warner (London and New York: (1) Penguin Classics, 1972), p. 156.

P.J. O'Rourke, Give war a Chance (New York: Atlantic Monthly: 1992), p. 167. (2)

القومية في كل أرجاء العالم تقريباً خلال القرن والنصف الماضية⁽¹⁾. هذه الرؤية القومية للماضي تبني ذكريات للشعوب تتناسب ومعاداتهم، كما أراد لها تيوسيديدس.

كيف نظرت الشعوب العربية إلى ماضيها العثماني. سلبياً، وبشكل يتوافق كثيراً مع روحية أورورك، فكرة مألوفة الآن في التاريخ العربي الحديث⁽²⁾. ولكن لماذا ظلت هذه الفكرة ولمدة طويلة مستقرة كالمقدسات، ولماذا بدأت في التغير، وببطء شديد كأنه لا ينتهي، خلال العقدين الأخيرين؟ جوابي المقترح على هذه الأسئلة يقع في جزأين. أولهما يختصر ما هو معروف عن الماضي «كحقيقة»، في المفهوم السائد لهذه العبارة - كيف كانت تجربة الشعوب التي تتكلم العربية في الزمن العثماني وكيف تجاوبت هذه الشعوب مع تجربتها هذه. أما الجزء الثاني فيتناول الطرق التي يمكن للماضي فيها أن يخدم أهداف الحاضر، وكيف أن هذه الاستخدامات قد تغيرت منذ نهاية الامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى.

(1) من أجل تقييم حقيقي للقومية راجع:

Benedict Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism* (rev. ed.: London: Verso, 1991).

إن الشعوب في تشكيلها للأيديولوجية القومية خلقت تراثاً شاملاً، ومزجته مع ذكرياتها القديمة، حتى وإن لم تكن حقيقية. راجع:

Eric Hobsbawn and Terence Ranget, ed., *The Invention of Tradition* (New York: Cambridge: Cambridge University Press, 1984).

(2) والتقييم المؤثر لهذه المسألة عرضه ألبرت حوراني في مقاله

«The Ottoman Background of the Modern Middle East», in his *The Emergence of the Modern Middle East* (Berkeley/Los Angeles: University of California Press, 1981), pp. 1-18.

وربما كانت أفضل المعالجات لهذه المسألة في النص العربي كتاب عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية (بيروت، 1984)، والذي ترجم إلى الإنكليزية من قبل لورنس كونراد Lawrence I. Conrad بعنوان: *The Historical Formation of the Arab Nation: A Study in Identity and Consciousness* (Durham, N.C.: Duke University Press, 1988).

الماضي والحقيقة:

العهد العثماني في التاريخ العربي هو تقريباً أربعة قرون بالتحديد، وهي فترة زمنية طويلة لأي شعب. ويحيط الغموض بمعظم هذه الفترة التي دُرست على عجل وقليلًا ما فُهمت. وهذه هي بالأخص حالة ما يمكن تسميته الفترة الحديثة المبكرة للتاريخ العربي والتي تتماثل مع فترة «القرون الوسطى» للتاريخ العثماني (حوالي 1600 - 1800). ومما لا شك فيه الآن أن هذه القرون الوسطى قد كانت نقطة الانطلاق للتجربة الحديثة، ولكن يبقى أننا لا نعرف سوى القليل عن هذه الفترة، ولا نتشارك هذه المعرفة مع شعوب الدول الوريثة، أو حتى نقارنها مع ما هو معروف حول الشرق الأوسط منذ القرن التاسع عشر فصاعداً.

هناك الكثير من الأسباب لهذا الوضع، لعل أكثرها بروزاً مفهوم «الانحطاط» العثماني الذي أصبح بارزاً في الكتابات التاريخية الأوروبية منذ أوائل القرن التاسع عشر. وعندما أصدر ليوبولد فون رانكه، أبو التاريخ المتخصص في أوروبا، تاريخه عن الامبراطوريتين العثمانية والإسبانية في القرن السابع عشر⁽¹⁾، كانت فكرته الأساسية أن الامبراطوريتين الإسبانية والعثمانية في حالة انحطاط في مواجهة نهوض الطبقات الوسطى الأوروبية. هذا المفهوم دخل الكتابات القومية في الشرق الأوسط خلال فترة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وأصبح نقطة التقاء للتواريخ العربية والتركية، مردداً لصدى وجهة النظر الأوروبية بشكل غير ناقد، ومستخدماً إياها لأسباب مختلفة تماماً.

الماضي القريب أصبح موضوع سخيرة واحتقار؛ والماضي البعيد، عصر الامبراطورية والمجد (وبالأخص العهدين الأموي والعباسي) اعتبر المقياس الذي يصبو إليه الإنسان العربي الحديث. أما بالنسبة لأولئك الذين بدأوا يفكرون بأنفسهم كأتراك، فإن الحثيين القدماء، من بين آخرين، قدموا لهم

Leopold von Ranke. The Ottoman and Spanish Empires in the Seventeenth Century, 11. (1) Walter K. Kelly (London, 1843).

نموذجاً هاماً.

وفي مسعى آخر، فإن العثمانيين الشبان، مثقفي الحركات الإصلاحية في منتصف القرن التاسع عشر، الذين تأثروا عميقاً بعلم ومعرفة أوروبا، وجهوا اهتماماتهم نحو قيام امبراطورية عثمانية حديثة. ولذلك دخلت الرؤى القومية والعالمية في صراع على معنى ووظائف الدولة العثمانية. وهكذا فخسارة اتجاه الرؤية العالمية كان بدون أدنى شك محتملاً.

سبب آخر للإهمال النسبي للقرون الوسطى في التاريخ العثماني كان الافتراض بأن التغييرات الدراماتيكية للقرن التاسع عشر، والإصلاح الداخلي، والاضطرابات الاجتماعية، والتحركات القومية، والصعود الأوروبي الاقتصادي والسياسي - كل ذلك جعل الفترة العثمانية الأولى تظهر وكأنها لا ترتبط بهذه التطورات، ولا تختلف نوعياً عن الماضي البعيد، ماضي العصور الوسطى. إلا أنه ومن خلال الجيل الأخير، فإن البحثة في الشرق الأوسط والغرب قد بدأوا بأخذ مقارنة مختلفة، مفترضين أن هذه القرون الوسيطة تمتلك ديناميكية خاصة بها، وأن المجتمعات المتعايشة ضمن المجال العثماني قد ارتقت في الواقع وتغيرت (وإن بإيقاع يختلف عن إيقاع القرن التاسع عشر) وأن هناك الكثير لمعرفته من خلال تجربة هذه القرون الوسيطة.

أما بالنسبة للشعوب التي تتكلم العربية في الإمبراطورية، والتي كانت تتمركز بمعظمها في ثلث المقاطعات العثمانية حتى القرن الثامن عشر، فقد كانت لها بعض التحفظات، بل وعدم اهتمام أحياناً، كما مرّت بفترات من المقاومة المفتوحة لأسياها العثمانيين في أحيان أخرى. وقد ترافقت هذه المقاومة في أحيان كثيرة بفترات من عدم الاستقرار والاضطراب في العاصمة الامبراطورية، عندما تنافست عناصر من النخبة الحاكمة للسيطرة على البيت الامبراطوري العثماني لتحقيق أهدافها الخاصة.

وهناك العديد من الأمثلة الحية لهذه الظاهرة. «حادثة أدرنة» المشهورة سنة 1703، انقلاب في السلطنة انتهى إلى قلب فيض الله أفندي المفتي الأساسي

للإمبراطورية، على يد مجموعة أخرى من النخبة الحاكمة كانت تكره نفوذ المفتي على السلطان. وقد حَمَلَت هذه المجموعة الأخرى، فيض الله بالأخص مسؤولية التدخل الكارثي النتائج في الحرب التي خاضها العثمانيون ضد النمساويين وقائدهم العسكري المرموق، الأمير يوجين من سافوي، من سنة 1683 إلى سنة 1699، والتي تابعتها هذا الأمير بنجاح لغاية القرن الثامن عشر⁽¹⁾. وبعد هذه الثورة بوقت قليل، حدثت انتفاضة في القدس دون أن يكون لها أدنى علاقة بالموضوعات المختلف عليها من قبل النخبة الحاكمة في العاصمة، إذ إنها كانت تدور حول السياسة المحلية والحزبية ضمن النخبة المحلية⁽²⁾. والأسباب نفسها كانت وراء عمليات شغب أخرى في مناطق مختلفة في الوقت ذاته.

بالمقابل، لم يشارك في النخبة الإمبراطورية الحاكمة إلا عدد قليل جداً ممن كانت اللغة العربية هي لغته الأساس. ومن المحتمل أن شخصين أو ثلاثة من خلفيات إثنية عربية قد وصلت إلى منصب الصدر الأعظم وبالنسبة لبعض الإحصائيات، للقرنين السادس عشر والسابع عشر كان عدد العلماء من الأصول العربية لا يتجاوز 3 أو 4 في المائة في الهرمية الدينية والقضائية الرسمية⁽³⁾.

ولقد ميّزت المصادر الأدبية العربية للقرن الثامن عشر، بين القيم والممارسات السائدة في عاصمة الإمبراطورية، وتلك السائدة في المقاطعات العربية. فعادات العثمانيين كان يشار إليها بالعبارة الشائعة «كعاداتهم»، وتلك العبارة تشير إلى أكثر من الانفصال الذي أملت المسافة الجغرافية؛ تشير إلى

(1) من أجل رواية معاصرة لهذه القضية، راجع كتاب:

Rifaat Abou-El-Haj, *The 1703 Rebellion and the Structure of Ottoman Politics* (Istanbul: Nederlands, Archaeological Institute, 1984).

(2) دراسة معاصرة لهذا الحدث نجدها في مقالة:

Minna Rosen, «The Naqib al-Ashraf Rebellion in Jerusalem and Its Repercussions on the City's Dhimmi Asian and African Studies 22 (1984), 249-70.

Rifa'at Abou-el-Haj, personal communications, September 1992.

(3)

إحساس بالاختلاف عنهم⁽¹⁾.

المثقفون العرب الذين زاروا العاصمة العثمانية تأثروا ولا شك بما رأوه، ولكنهم نادراً ما تمتعوا بميزة الانتماء إلى النخبة الحاكمة، وذلك بأن يصبحوا عثمانيين أمثال أولئك الذين خدموا الدين الإسلامي والدولة الإسلامية العالمية. وكمثال للإحساس بالإحباط والمرارة عند العرب نذكر الكاتب المصري «الخفاجي» الذي أمضى وقتاً طويلاً في إسطنبول واحتل مكانة هامة في الآداب العثمانية. ففي كتابه «ريحانة الألبا» الصادر في منتصف القرن السابع عشر نحس بوضوح مرارة الإحباط، الأمر الذي قد يكون نموذجاً لمعظم الناطقين بالعربية (دون ذكر المقاطعات الأخرى)، الذين وجدوا أنفسهم مبعدين عن المكافآت الكبرى في الإدارة والسلطة اللتين تديرهما الدولة العلية⁽²⁾.

وإضافةً لمفهوم البعد الثقافي بين المركز والأطراف، نذكر أيضاً محمد خليل المرادي، رئيس الإفتاء الحنفي في دمشق بين سنتي 1778 و1791، ومؤرخ مدينة دمشق ووجه اجتماعي وفكري هام في حياة الدمشقيين. قضية المرادي هذا توضح العلاقة المعقدة التي تربط بين وجه من المقاطعة - على الرغم من أهميته - ومركز الحياة الاجتماعية والسياسية في إسطنبول. وكان المرادي يتناسب وبوضوح مع مقاييس التعريف العلمية للعثماني كشخص خادم للدين والدولة ويجيد لغة وأدب النخبة العثمانية⁽³⁾. المرادي كان يتقن اللغة

(1) See Karl Barbir's discussion in *Ottoman Rule in Damascus, 1708-1798* (Princeton: Princeton University Press, 1980), pp. 75-77.

(2) See Rifaat Abou-El-Haj, *Formation of the Modern State: The Ottoman Empire, Sixteenth to Eighteenth Centuries* (Albany: State University of New York Press, 1991), p. 25.

ولمزيد من المعلومات راجع مقالته، «آراء عربية عن الانحطاط العثماني في القرن السابع عشر»، *المجلة التاريخية المغربية*، عدد 57/58، 1990، ص ص 17-21.

(3) هذا التعريف المتبع وجد أصوله مع: Lewis V. Thomas and was followed by Norman;

Itzkowitz and Max Mote in *Mubadele: An Ottoman-Russian Exchange of Ambassadors* (Chicago: University of Chicago Press, 1970), p. 11.

التركية، على الرغم من أنه بالأصل من متكلمي العربية؛ واتبع قواعد للسلوك مختلفة، إلا أنها لم تكن أقل تكلفاً وتميزت بالوقار والرصانة المعروفة إجمالاً عند العلماء الأتراك أو العرب؛ وقد خدم الدين والدولة إلى جانب ممارسته للقيادة الاجتماعية في مجال مديني، وهي عادة شائعة خارج عاصمة الامبراطورية.

وعندما التقى مع نظرائه في العاصمة الامبراطورية، شعر المرادي بالاختلافات الثقافية التي تميزه (وبشكل أوسع، تميز الآخرين أيضاً من المقاطعات العربية) عن مضيفيه في اسطنبول. وهذا الشعور بالاختلاف يظهر أحياناً في أعمال هذا المفكر العربي البارز. وكان يعبر دائماً وبغصة عن أعمال العثمانيين بالجملة الشائعة «كعادتهم»⁽¹⁾.

ومن جانبهم، فإن زملاء المرادي العثمانيين - النخبة في العاصمة، نظروا لشعوب المقاطعات وسكان الريف بغض النظر عن خلفيتهم الإثنية - تركية أو عربية - بشيء من الشك والازدراء. الكلمة التركية عرب حملت في طياتها مضموناً عنصرياً منتقصاً ككلمة «أسود»، وحفظت إلى الآن في اللغة التركية الحديثة⁽²⁾. ويوضح هذا المثل الذهنية المستخدمة. في سنة 1757، كان الصدر الأعظم الجديد المعين راغب باشا، والذي سبق أن خدم ولمدة قصيرة حاكماً على حلب ثم ولمدة أقصر حاكماً على دمشق، يصف نظيره حاكم دمشق السابق، العربي أسعد باشا العظم بـ فلاح ابن فلاح عندما رفض هذا الأخير مساعدة راغب بالانتقال سريعاً إلى اسطنبول واستلام مهامه كصدر = والميزة الأساسية لهذا التعريف هي أنه مشتق من رؤية ذاتية عثمانية. ونجد تشكيلاً أكثر معاصرة لهذا التعريف في مقالة:

Norman Itzkowitz, «Political Structure», *Modernization in the Middle East: The Ottoman Empire and Its Afro-Asian Successors*, ed. Cyril E. Black and L. Carl Brown (Princeton: Princeton University Press, 1992), pp. 46-47.

(1) مثلاً، في كتابه سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (4 أجزاء، بغداد، 1972)، ج 2، ص 25.

(2) Cf. Redhouse Yeni Türkçe-İngilizce Sözlük (İstanbul: Redhouse Press, 1968), p. 69.

أعظم⁽¹⁾. ومن مفارقات القدر أن ازدراء راغب قد عُبر عنه باللغة العربية، وهي لغة يتقنها جيداً كعضو من النخبة العثمانية البيروقراطية المثقفة، وكان قد درس اللغة العربية سابقاً عندما كان والياً على مصر. إضافة إلى ذلك، وفي نفس العام فإن دفتردار الأحكام العثمانية الصادرة، أشار إلى الشام، المدينة العربية التي سادها آل العظم حينها، على أنها رابع المدن المقدسة في الإسلام، الحرم الرابع. وكان هذا تعبيراً مبتدعاً، وكان له بالتأكيد مغزاه السياسي⁽²⁾.

من الواضح أنه كانت هناك ازدواجية حتى بين المثقفين العرب الذين يتكلمون العثمانية في إدراكهم للإمبراطورية العثمانية أو الأشياء العثمانية، ولم يكن الفرق اثنيّاً بالكامل أو مرتبطاً بمسألة اللغة، ولكنه كان نابعاً بالجواهر من التجربة الشخصية، والتضامن الاجتماعي، والهوية المهنية. هنا، الوعي هو الذي أدى إلى عدم الرضى؛ ولم يكن الجهل أو الرفض المتعمد للآخر هو الذي أدى إلى ذلك، كما ستصبح الحال في معظم القرن العشرين، بعد انهيار الامبراطورية. ومن المهم أن نتذكر أنه في هذه المرحلة الأولية، قبل القرن التاسع عشر، بقي المجال السياسي - الاجتماعي وبشبات إمبراطورياً، أو بمعنى آخر ما قبل قومي.

ما الذي غيّر هذه الازدواجية والعلاقة العدائية التي كانت تقع في مناسبات معينة خلال القرن التاسع عشر؟ إلى جانب الأثر المعروف لأوروبا، يبدو واضحاً أثر حركات الإصلاح العثماني في مراحلها المتتابة (سليم الثالث، 1789 - 1807؛ محمود الثاني، 1808 - 1839؛ فترة التنظيمات، 1839 - 1876؛ عهد عبد الحميد الثاني، 1876 - 1909؛ ومرحلة سيطرة تركيا الفتاة لغاية 1918)، والتي ساهمت كثيراً في تقويض الوعي الذاتي لشعوب الشرق

(1) Barbir, Ottoman Rule, pp. 59-60.

(2) المرجع إلى الحرم الرابع موجود في اسطنبول. Osmanli Arsivi, Mühimme Defteri 160, dated 29 Saban 1171 (April 30, 1758), p. 377.

الأوسط الذين كانوا جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. جاءت وبشكل جارف اتجاهات فكرية جديدة، بالأخص من الغرب، مشكّلةً مادة أيديولوجية بارزة. الإسلام، الإصلاح، اللامركزية، والقومية اختلطت جميعاً كاحتمالات مستقبلية عُبر عنها من قبل النخبة المثقفة، بغض النظر عن خلفياتها الدينية أو الإثنية. وإذا كان مفهوماً اليوم أن هذه القوميات المختلفة ستسود، فإن هذا لم يكن وبأي شكل من الأشكال مؤكداً من قبل تلك الأجيال التي تصارعت مع هذه الأفكار المتنافسة في ذلك الوقت. العثمانيون الإصلاحيون عملوا على الحفاظ على الإمبراطورية التي أطلق عليها القيصر الروسي نيقولا الأول اسم «الرجل المريض»، ومن المحتمل أنها كانت مريضة نهائياً، قبل بداية حرب القرم بوقت قليل. إلا أنه ومن سخرية القدر، أن الإمبراطورية الروسية انهارت قبل الإمبراطورية العثمانية بسنوات معدودة. لم يعد الوقت مناسباً للإمبراطوريات الشرقية.

وعلى الرغم من انهيار مفهوم تركيا الفتاة بفرض عبد الحميد الثاني لسياسة الحكم المطلق بعد 1878، استمرت حركة إصلاح خفيفة في الانتشار بين بعض عناصر النخبة العثمانية، في كلٍّ من المركز والمقاطعات. حركة الإصلاح هذه سعت إلى احترام خواصّ الشعوب العثمانية ضمن إطار عثماني - إسلامي موحد. مفهوم التعددية ضمن الوحدة هذا (وهو مفهوم شرق أوسطي غير مكتمل من القرن التاسع عشر يوازي مفهوم التعددية الحالي في مجرى الحياة الأميركية المدنية) استمر في فرض جاذبية قوية، وخاصة بسبب أنه يؤمن مساواة مدنية وقانونية (على الأقل من حيث المبدأ) لكل الرعايا العثمانيين، وقد اعتقد الإصلاحيون أنه يقدم بذلك الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الدولة وذلك بالحفاظ على ولاء كل شعوبها. إلا أنه كان للإصلاحيين خصوم هائلون داخل النخبة الحاكمة وبين المجموعات القومية الناشئة في كل مكان من الإمبراطورية.

ولم يفكر بعض العرب جدياً في مصير منفصل خاص بهم إلا بعدما ظهر أن أعضاء تركيا الفتاة قد بدأوا بالتخلي عن الرؤية التعددية للإصلاحيين

في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة. وعلى الرغم من أن النهضة العربية الأدبية والثقافية قد ظهرت بينهم منذ أواسط القرن التاسع عشر⁽¹⁾، إلا أن الحرب العالمية الأولى جعلت إمكانية تحقيق الحلم العربي تبدو ممكنة. وساعد رعب تلك الحرب على ترسيخ الكتابة التاريخية القومية في العشرينات والثلاثينات بين العرب. وكانت هذه المسألة بشكل خاص عند عرب الهلال الخصيب الذين وجدوا أنفسهم مجزأين بين الدول الأوروبية المنتدبة إلى سوريا، لبنان، العراق، الأردن، وفلسطين فاستلأعوا وبسهولة أن «يوفقوا بين معاناتهم» وفكرة أن العرب سيثو الحظ فهم لم يتحرروا أخيراً من إمبريالية متقهقرة (عثمانية) إلا ليقعوا ضحية لإمبريالية أخرى (أوروبية). وقد أصبحت هذه الفكرة في الواقع النسخة المقياس للقومية العربية.

وللمفارقة، ظهرت الأفكار العربية التقليدية المعبرة عن هذه الفكرة، أول الأمر بالإنكليزية سنة 1938. فكان كتاب «بقظة العرب» لكتابه جورج أنطونيوس، وهو عربي مسيحي فلسطيني. إلا أن الأبحاث التاريخية اللاحقة قد أظهرت نقاط ضعف هذا التفسير للعلاقات العربية - العثمانية. ومن بين التصحيحات التي عرفت الأبحاث التاريخية المتتالية: (1) دور الإرساليات المسيحية والمدارس التي أقامتها (كالكلية السورية الإنجيلية، التي عرفت لاحقاً بالجامعة الأميركية في بيروت)، والتي على الرغم من أهميتها في إثارة الاهتمام بالغرب، تبقى باهتة بالمقارنة مع المساعي التربوية التحديثية الأكثر انتشاراً للإمبراطورية العثمانية، والتي ابتدأت خلال فترة التنظيمات. (2) لم يكن السلطان عبد الحميد معادياً للعرب. وفي الواقع توصل العديد من العرب خلال عهده إلى مناصب رسمية عالية. وسياسة عبد الحميد الإسلامية يمكن رؤيتها، في جزء منها، كاستراتيجية مرضية تعتمد أكثر على الأكثرية (العربية والتركية) من مسلمي الإمبراطورية، بعد خسارتها معظم الأراضي التي شكل

(1) دراسة معاصرة لهذه التوجهات في المحيط الدمشقي نجدها في كتاب:

David Dean Commins, Islamic Reform: Politics and Social Change in Late Ottoman Syria (New York: and Oxford: Oxford University Press, 1990).

المسيحيون قسماً كبيراً من سكانها في أوروبا العثمانية. (3) إن الثورة العربية بقيادة الشريف حسين في الحرب العالمية الأولى، وبالتحالف مع بريطانيا العظمى كانت مؤيدة من قبل عدد قليل من العرب، الذين بقوا بغالبيتهم يميلون إلى تفضيل الحكومة العثمانية (آخر ما تبقى من الدول الإسلامية ذات الأهمية) أو على الأقل يراعون الحياد الحذر.

العروبة، باختصار، أنت لاحقاً، والتاريخ الذي يعيد حركة القومية العربية التي تسعى إلى التحرر من الإمبريالية العثمانية إلى زمن مبكر، هو تاريخ ضعيف. والانفصال النهائي كان وبدرجة كبيرة رداً على المظاهر القومية التركية المتصاعدة في اسطنبول مع قدوم حكم رجالات تركيا الفتاة⁽¹⁾.

بل إن نقطة اللارجوع كانت وبالتحديد، اعتماد كمال أتاتورك لسياسة قومية تركية ناجحة بديلاً للتركة الإمبراطورية. وهذا ما استلزم استبعاداً لأي إمكانية بقيام كيان سياسي واحد يجمع الترك والعرب معاً. لقد استشرى رفض الماضي العثماني في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، والتعبير الأقسى عن هذا الرفض، برز عند أولئك الذين كانوا هم أنفسهم نتاجاً للعقود الأخيرة من الحكم العثماني⁽²⁾.

(1) الدراسات الرائدة حول العلاقات العثمانية - العربية، والتي تصحح التوجهات القومية العربية الغير الناضجة، وتقدم فحصاً دقيقاً لهذا الموضوع هي:

C. Erneet Dawn, *From Ottomanism to Arabism* (Champaign: University of Illinois Press, 1973) and Zeine, *Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism* (Beirut: Khayats, 1958). *The Origins of Arab Nationalism*, ed. Rashid Khalidi, Lisa Anderson, Muhammad Muslih, and Reeva S. Simon (New York: Columbia University Press, 1991).

(2) من أجل الإطلاع على سيرة شخصين بارزين اتخذوا هذا الموقف، ولكن بطريقتين مختلفتين تماماً، راجع كتاب:

William L. Cleveland, *The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati' al-Husri* (Princeton: Princeton University Press, 1971); and his *Islam Against the West: Shakib Arslan and the Campaign for Islamic Nationalism* (Austin: University of Texas Press, 1985).

الماضي بوصفه عقيدة:

الجهل أو التجاهل المتعمد، وعدم المقدرة على قبول الماضي كحقيقة، واحدة من المصاعب التي تتربص بكتابة التاريخ. ففي هذا النشاط الإنساني قليلة هي المسائل المتوافق عليها. ويبدو أن خيار المؤرخين، والتزاماتهم، والزمان هو الذي يكتف ما يجدونه ذا معنى في الماضي. وبعبارة أخرى، فإن كل مؤرخ هو أسير ميدان خاص أو موضوع معين، بغض النظر عما إذا كان هذا الأسر هو نتاج تجربته الخاصة، فضوله، أو ميوله الأيديولوجية. أما اليوم فإن ورطة المؤرخ قد تغيرت مع مرور الزمن ومع ازدياد المسافة بين أيامنا الراهنة والأيام الأخيرة للامبراطورية العثمانية⁽¹⁾. ويجب الاعتراف أن المؤرخين غير المختصين وأكثر منهم الرأي العام، قد رأوا منذ فترة غير طويلة، القليل من القيمة في التراث العثماني. ومن سوء الحظ أنه ما يزال هناك حتى اليوم الكثيرون من المقتنعين بهذا الحكم. لماذا تطرح المسألة على هذه الشاكلة؟

على الرغم من احتجاجات المؤرخين المحترفين وإظهارهم العكس، ما يزال الناس العاديون يعرفون التاريخ من خلال ارتباطه بتجاربهم الشخصية الخاصة. ونظرة سريعة على عناوين الكتب المعروضة في المكتبات ستقنع أي مشكك بذاتية الناس؛ الكتب التي نجدها تتعلق بشكل أساسي بالحروب، السير الذاتية، الثورات، وكل ما يتعلق بالتجارب أو الأحلام العادية، حيث يمكن لكل شخص أن يرى نفسه في الأحداث التي عاشها أو مع الأشخاص الذين يشاركونهم قيمهم، أو بالعكس، مع الأشخاص الذين يختلف معهم بشكل جذري.

وتقف الامبراطورية العثمانية اليوم كمثال بارز لهذه الذاتية. قلة هم الباقون على قيد الحياة ممن تشكل لهم حياة الامبراطورية وحقائقها ذكريات حية. مع مرور الوقت، فإن الامبراطورية العثمانية اليوم هي حقيقة جزء من

(1) وتفيدنا حول هذه النقطة مقالة هكستر J.H. Hexter المشهورة:

«The Historian and His Day», in Reappraisals in History (Evanston, III.: Northwestern University Press, 1961), pp. 1-13.

التاريخ، ولكونها كذلك يجب التعاطي معها بواقعية بدل إنكارها أو إدانتها، كما كانت الحال عندما سادت الأيديولوجية القومية بين الشعوب المكونة للإمبراطورية سابقاً، وعندما كانت كما بالنسبة للعرب، الذكريات الشخصية حول آخر حكام الإمبراطورية، أعضاء تركيا الفتاة، ما تزال حية ومؤلمة، ومرتبطة مع القومية التركية والمصائب التي صاحبت فترة الحرب العالمية الأولى وما تلاها من محن. فكم تبدو بعيدة «القرون الوسطى» التي، كما بينا، كانت ذات أهمية في تشكيل الشرق الأوسط الحديث!

مع مرور الجيل الأول لقومبي ما بعد العثمانية، شهد العالم العربي في السبعينات من القرن العشرين بدايات حركة ممزوجة بالتراث. والأشخاص المنغمسون في هذا المسعى لديهم ردات فعل لما يرونه فشلاً للنماذج الإصلاحية والتقدمية القومية والعلمانية. المثقفون حاولوا تحديد هوية غير غربية، وغير علمانية، مصاغة بتعابير إسلامية. الماضي العثماني تم تصويره بازدواجية في عملية إعادة تحديد الهوية هذه. فالعثمانيون كونوا آخر إمبراطورية إسلامية عالمية، ولكن نظر إليهم على أنهم فشلوا في مواجهتهم مع الغرب. ولذا، كان هناك بين مؤلفي مدرسة التراث، تقدير للعناصر الإسلامية في التجربة العثمانية، ولكن كان هناك أيضاً امتناع عن تقدير التجربة العلمانية لهذه الإمبراطورية في احتكاكها مع بقية العالم وفي تجاوبها في حياتها اليومية لوقائع السلطة، وباحتوائها على طموحات الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية والتي يمكن تحديد هوياتها بأكثر من طريقة. ومثل القوميين، فإن مؤلفي التراث، مالوا إلى تجاهل القرون الوسطى، قافزين من القرن السادس عشر، عندما أصبح معظم العالم العربي جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، إلى القرن التاسع عشر، عندما أصبح الغرب متورطاً بعمق في شؤون المنطقة.

الدولة العثمانية كانت متقبلةً لمجموعات اثنية، دينية، اقتصادية، ومهنية متنوعة أكثر من تقبل الدول الحديثة التي خلفتها. يمكن قول هذا دون إضفاء الرومانسية على الماضي. الاعتبار العملية التي واجهت الحكام العثمانيين

حُتِّمَ عليهم احترام هذا التنوع. ولنذكر، كمثال، تثمانين اندريه ريمون للحياة المدنية في الجانب العربي من الامبراطورية العثمانية خلال أوائل الفترة الحديثة:

كانت المدن العربية في العهد العثماني تتميز بوجود تنوع كبير للمؤسسات المجتمعية (طوائف) التي لعبت دوراً هاماً جداً في معظم الميادين المختلفة؛ المجموعات المهنية...، المجموعات القومية والدينية...، والمجموعات الجغرافية... وقد قدمت هذه الطوائف بنية أمنت التلاحم الداخلي للمجتمع المدني وسمحت للسلطات في الوقت ذاته بممارسة ضبط محكم (بطريقة غير مباشرة)... الرعايا كانوا لهذا متحدين في سلسلة من الشبكات التي غطت كل جوانب حياتهم والتي كانت، في أكثر الحالات مركبة: فأى فرد ينتمي إلى نقابة حرفية في مجرى نشاطه المهني في السوق حيث يعمل خلال النهار، ينتمي أيضاً إلى المجموعة الاجتماعية في الحي الذي يعيش فيه مع عائلته⁽¹⁾.

ولهذا فإن نظام الملل هو واحد فقط من عناصر عدة للتراث العثماني، بالرغم من العداء والسخط الذي أثاره في أذهان القوميين. العديد من الحركات السياسية في الدول التي خلفت العثمانيين، وخاصة القومي منها، تعتبر نظام الملل كبقايا للسياسة العثمانية والأوروبية القائمة على أسلوب فرق تسد. إلا أنه وبالرغم من هذه النظرة القومية، هناك وجهة نظر سابقة، مثالية أواسط القرن التاسع عشر، النموذج العثماني الفتحي الذي يتكون من امبراطورية فدرالية لمجموعات الشعوب والطوائف، ضمن نظام موحد عثماني - إسلامي عالمي. كان هذا هو المثال الذي سعى إليه الصدر الأعظم المصلح مدحت باشا (1876 - 77)، والمفكر اللبناني الموسوعي بطرس البستاني في العقدين التاليين، والذي تم تطويره في القرن العشرين على يد القانوني السوري يوسف

André Raymond, The Great Arab Cities in the 16th-18th Centuries: An Introduction (1) (New York: University Press, 1984), p. 18.

الحكيم، إضافة إلى آخرين وأقلية من مثقفي العرب المعاصرين⁽¹⁾.

ومثال على وجهة النظر هذه أبرزها أكاديمي لبناني مسيحي في حديث عن مجرى الحرب الأهلية في لبنان، في أواخر العام 1976. قال المسيحي الأرثوذكسي إيلي سالم مخاطباً الأمم المتحدة في نيويورك، إن لبنان «نجمة ضائعة من المجرة العثمانية». وكانت هذه عبارة مميزة للبناني، لأن التقاليد التاريخية اللبنانية (والتي كانت لها معارضة دائمة) كانت تركز على خاصية لبنان في تاريخ الشرق الأوسط وكانت تسعى إلى فصله عن التطورات الواسعة (التي تقرأ إسلامياً) لماضي المنطقة⁽²⁾.

مؤخراً، مجموعة صغيرة من البحاثة العرب نظروا إلى تراثهم العثماني على قاعدة أن أربعمئة عام من التاريخ لا يمكن مسحها نهائياً. ولإيضاح مدى الصعوبة في التوصل إلى تسوية مع تراث تاريخي، علينا أن نقارن بين الكتابات التاريخية القومية العربية في الفترة ما بين 1952 و1980 مع الاهتمام الحاضر بالماضي العثماني كما يعبر عنه قيام مؤسسات للدراسات العثمانية في دول عربية عدة. وعلى الرغم من أن مؤسسات الدراسات العثمانية الجديدة

(1) يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثماني، ج 1، (بيروت، دار النهار للنشر، 1966)،

الحكيم، سوري مسيحي، عاش في العقود الأخيرة من الحكم العثماني، وأصبح رئيس قضاة سوريا المستقلة. وفي سبيل تقييم لبطرس البستاني، المسيحي أيضاً، راجع مقالة:

Leila al-Imad, «Butrus al-Bustani: A Literary Genius and Social Prophet» AHROS 3-4 (December 1991): 39-46.

(2) من أجل معالجة حساسة لموضوع إعادة كتابة التاريخ اللبناني في إطار عثماني، أو على الأقل الاعتراف بالبعد العثماني لماضي لبنان، راجع كتاب كمال الصليبي، بيت بمنازل كثيرة: الكيان اللبناني بين التصور والواقع (بيروت، مؤسسة نوفل، 1990)، وهي ترجمة لكتابة الصادر باللغة الإنكليزية:

A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered (Berkeley/Los Angeles: University of California Press, 1988).

وخاصة الفصل الثامن («لبنان العثماني: ما خصوصيته؟»)، والفصل الحادي عشر، («الحرب حول تاريخ لبنان»)، والفصل الثاني عشر، («البيت والمنازل الكثيرة»).

هذه لم تتعاط بعد في إعادة تقييم شاملة للماضي العثماني، إلا أن المسيرة قد بدأت.

وكعينة ممثلة لهذا التفكير الجديد يمكن أن نجدها في أول الأعداد لمجلة جديدة، المراجعة التاريخية العربية للدراسات العثمانية Arab Historical Review for Ottoman Studies (AHROS) لناشرها ومحررها عبد المجيد التميمي من جامعة تونس، جمعية التاريخ العثماني في بيروت، تأسست عام 1986، وينتمي أعضاؤها إلى مجموعات إثنية - دينية متعددة؛ ومركز الدراسات التركية في جامعة الموصل في العراق، تأسس سنة 1988؛ المؤسسة المغربية للدراسات العثمانية، تأسست عام 1989؛ المركز المصري للدراسات العثمانية، تأسس عام 1990⁽¹⁾.

مدلول واحد لهذه المساعي المعاصرة، والتي لم يتم التعرف أو الاعتراف بها بشكل واسع بعد، وهو أنه قد آن الأوان لينظر للشعوب والمجتمعات العثمانية باعتبارها عادية وليست غريبة. وهذا هو جوهر مناقشة رفعت أبو الحاج في كتابه: تكون الدولة الحديثة: الامبراطورية العثمانية من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر. Formation of the Modern State. The Ottoman Empire, Sixteenth to Eighteenth Centures. وهنا يشجب الكتابة التاريخية التي «تستمر في التركيز على الغريب، والشاذ،

(1) Rifaat Abou-El-Haj, «The Social Uses of the Past: Recent Arab Historiography of Ottoman Rule», International Journal of Middle East Studies 14 (1982): 185-201; Abdeljelil Temimi, «Problematisques de la recherche historique sur les provinces arabes a l'epoque ottomane». AHROS 3-4 (December 1991): 111-17 (Arabic version, pp. 23-30). The list of new Ottoman Studies centers is given on p. 115.

ويجب ملاحظة أن المغرب لم تكن جزءاً من الامبراطورية العثمانية، على الرغم من علاقاتها الدبلوماسية والتجارية الكثيفة معها. ومن أجل غرب الجزيرة، وخاصة الحجاز، والتي كانت تحت الحكم العثماني، راجع مقالة:

William Ochsenwald, «The Recent Historiography of Western Arabia: A Critical Examination», to appear in volume 23 of the Proceedings of the Seminar for Arabian Studies.

والأحادي الجانب الخاص في الحضارة والتاريخ العثماني⁽¹⁾. وكلما أسرع دارسو التراث العثماني في الموافقة على أن موضوعات دراساتهم «طبيعية»، بالمقارنة مع موضوعات أخرى في أزمنة وأمكنة مختلفة، كلما أصبح البحث أفضل. إن التمسك «بالغربة» و«الرفض» تجاه الماضي العثماني يجب استبعادهما.

وسؤال آخر صعب قد يواجه أولئك الذين يبحثون في التراث العثماني، هو استمرارية الإمبراطورية العثمانية بالرغم من كل الصعوبات. لو كانت الإمبراطورية حقاً في مثل هذا الموقف الصعب، لو كانت تعاني فعلاً من التحديات الخطيرة الداخلية والخارجية، فكيف استمرت في الحياة؟ لو كان العثمانيون طغاة إلى هذا الحد، فكيف تمكنت كل مجموعة قومية/دينية أو اثنية من البقاء؟ للإجابة على هذه الأسئلة لا بد من الذهاب إلى أبعد من التصميمات العادية حول انعدام البدائل البنيوية أو إلغاء دور المنافسة الأوروبية فيما يتعلق بالتراث العثماني. بالنسبة للوضع الداخلي للإمبراطورية يرى رفعت أبو الحاج أنه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كانت هناك قوى متناقضة تعمل علناً من أجل المركزية واللامركزية. الطريقة التي تفاعلت بها هذه القوى مع بعضها البعض يمكن أن تكون قد أدت إلى الحفاظ على الأقل على أساسيات الإمبراطورية، ولكنها أيضاً أدخلت تغييرات هائلة: في نظام جباية الضرائب، في تكوين النخبة الحاكمة، والحزبية داخل هذه النخبة، وإلى ما هنالك⁽²⁾.

وهذا ما يشكل فرضية أكثر وضوحاً وأكثر اعتماداً على معلومات تجريبية

Formation of The Modern State p. 1.

(1)

وكما تشير ثريا فاروقي وكورتل فيشر في مقدمة كتابهما هذا (ص xi)، «هذه العبارات الجيدة نسبياً، قد تتوقف عن كونها جيدة عندما نأخذ بعين الاعتبار المحيط التي ولدت فيه». وخاصة التقاليد التي استمرت في رؤية تجارب الحضارات الأخرى كشيء غريب، وشاذ، وليس بالضرورة خاضعاً لقوى وتوجهات مماثلة لتلك الموجودة في أماكن أخرى.

See Abou-El-Haj. Formation of the Modern State. Particularly the Epilogue, pp. 61-72. (2)

من الفرضيات المقترحة من البحاثة في الماضي، وهذا ما يدل على التقدم الحاصل الذي ساهمت به أياذ عدة. وله الفضل في اقتراح عملية ديناميكية، بدلاً من البدائل السابقة القائمة على فكرة الانحطاط المستمر أو العقم. والكيفية التي سيتم التعامل بها مع هذه الفرضية من قبل البحث المستقبلي التخصصي، سيكون لها أهمية بالغة لدارسي التراث العثماني. هل سيأخذون بالنظرة المقارنة، ضمن الإطار العثماني، متصارعين مع التوجهات العامة للتاريخ العثماني، دارسين للتركة العثمانية، قائمين بأعمال البحث في الأرشيف العثماني، ومفتشين عن قواسم مشتركة بين شعوب الدول التي خلّفت الدولة العثمانية؟

وصعوبة أخرى تواجه هذه الدول المتعاقبة التي خلفت الدولة العثمانية، هي دور الغرب. وفكرة أن هذا الدور كان هائلاً منذ أواخر القرن الثامن عشر فصاعداً، يجب أن تقبل. ويبقى، أن هناك الحاجة لرؤية دور تصادم الثقافات كباعث للفعل وردات الفعل من الجانبين. فالمسألة ليست كأن الامبراطورية العثمانية، على الرغم من أنها كانت مطوقة، كانت دولة عاجزة، ومجتمعاً كان بإمكان أوروبا المتطفلة فرض إرادتها عليه. إن هذا سيعين تهميش التاريخ العثماني الذي يمكن رؤيته من داخله. وتعريف مضمون التراث العثماني بتعابير أوروبية صرفة سيؤدي إلى تجاهل ليس فقط المبادرات الكثيرة الآتية من داخل العالم العثماني منذ فترة سليم الثالث وإلى نهاية الامبراطورية وإنما أيضاً التغييرات التي حصلت في هذه الفترة الحديثة المبكرة الهامة من 1600 - 1800م قبل أن يصبح الضغط الأوروبي مسيطراً⁽¹⁾.

(1) هذه النقطة عبر عنها بقوة روجر أوين Roger Owen في مقالته:

«The Middle East in the Eighteenth Century - an «Islamic» Society in Decline: A Critique of Gibb and Bowen's Islamic Society and the West», Review of Middle East Studies 1 (1975): 101-12.

ويتقد أوين (ص 108) هَوَسَ بعض الباحثين الغربيين بمبدأ الانحطاط العثماني: في حين أن هذا المفهوم برأيه، هو «وبوضوح» أيديولوجي وينبع مباشرة من المشروع الأساسي القائم على رؤية الشرق الأوسط ككيان يشكل مجتمعاً إسلامياً، ويمكن مقارنته بكيان آخر - المجتمع الغربي.

لقد كان هناك، قبل كل شيء، نقاشات حيوية بين النخبة العثمانية، منذ القرن السابع عشر وما بعده تتعاطى مع مسألة «الانحطاط» العثماني، أو التغيير، وكان مسار هذه النقاشات محكوماً بوجهات نظر هذه النخبة، مدى التغيير الذي حدث قبل فترة السيطرة الأوروبية اقترحه من خلال ملاحظاتهم، أشخاص مثل الكسندر راسل، طبيب في شركة الشرق العاملة في حلب خلال العقود الوسطى من القرن الثامن عشر. لقد اختلط راسل وبحرية مع السكان المحليين، بعكس الكثيرين من الأوروبيين الآخرين الذين سكنوا حلب في فترة إقامة راسل. ملاحظاته، المجموعة في عمل ضخم حول حلب تظهر مجتمعاً ديناميكياً. في إحدى هذه الملاحظات يرى راسل: «الدين، لم يعد موقراً كما كان في السابق، ولم يعد محتفظاً بأكثر من شكله الخارجي، فلم يعد له نفوذ كاف لردع المفساد الكثيرة التي أدخلتها عالمياً الرفاهية الحديثة، وروحية العصر العابثة»⁽¹⁾.

وهنا يمكن للمرء أن يلحظ الدرجة التي أصبحت معها الأذواق والمنتوجات الأوروبية شائعة بين شرائح المجتمع الحلبي الثرية من منتصف إلى أواخر القرن الثامن عشر. ومؤشر أوضح للنتائج الاقتصادية والاجتماعية لتسرب عادات الاستهلاك الغربية، وللتغيرات الهامة التي تحدث داخل هذه الشريحة للمجتمع العثماني، أبرزته الملاحظة التالية التي أعطيت إلى راسل من قبل مفتي حلب، الذي كانت تربطه براسل علاقة حميمة: «إذا اعتمدت... عكس ما ترانا نفعله يومياً، التفهم والدقة، فستكون أقرب إلى الحقيقة وستكون درجة الخوف من تضليل مواطنيك أقل»⁽²⁾.

هذا التفجع، الذي أصبح دمغة ملتصقة بكتابات المسلمين الفاعلين المعاصرين في القرن العشرين، هو أيضاً نتاج مواجهة بين ثقافتين، طريقتي حياة، ونظامين للقيم، وهي مواجهة يبدو أنها تعود لقرنين من الزمان. راسل

Alexander Russell, The Natural History of Aleppo, vol. 1, 2d ed. revised by Patrick (1)

Russell (2 vols.: London, 1794), p. 336.

(2)

والمفتي لم يكونا شاذين أو غير عاديين في رؤيتهما للتغيرات الممزقة في زمانهما، وبالنسبة للسعي الطائش نحو الثروة والمركز، وكنتيجة لإهمال دراسة الماضي، كان للمؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي (توفي 1826) الكثير ليقوله. كمؤرخ للمقرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وكشاهد على احتلال نابليون لمصر، وقيام حكم أسرة محمد علي في هذا البلد، كان الجبرتي مشغولاً بتبادل الرسائل مع بحاثه مهمين في أمكنة أخرى من العالم العثماني، من اسطنبول إلى دمشق. وقد كتب الجبرتي في مقدمة تاريخه الشهير:

إن الزمان قد انعكست أحواله وتقلصت ظلاله وانخرمت قواعده في الحساب فلا تضبط وقائعه في دفتر ولا كتاب. وإشغال الوقت في غير فائدة ضياع وما مضى وفات ليس له استرجاع إلا أن يكون مثل الحقيير منزوياً في زوايا الخمول والإهمال، منجمعاً عما شغلوا به من الأشغال فيشغل نفسه في أوقات من خلواته ويسلي وحدته بعد سيئات الدهر وحسناته⁽¹⁾.

تجارب راسل والجبرتي تفترض أن دارسي التراث العثماني يواجههم، كما واجه مؤرخين آخرين، تحدي رؤية تجارب موضوعات دراساتهم باعتبارها عادية، وتقييم الأهمية النسبية للاستمرارية والتغير، وربط القرون الوسطى بالعصر الحديث، وجعل العملية بكاملها مفهومة للقارئ المعاصر.

مثال أخير حول وثاقة الصلة بالماضي العثماني، وبالنظام العالمي المتضمن في مثالية الإصلاحيين العثمانيين في القرن التاسع عشر والمتعلق بالتعددية ضمن الوحدة، هو التجربة المأساوية للبوسنة والهرسك، وبالأخص سيرايفو، مركز الحادثة عام 1914 التي أدت إلى الحرب العالمية الأولى، والتي عجلت بالانحلال النهائي للإمبراطورية العثمانية. ومعاناة الكرواتيين، والمسلمين، والصرب الذين كانوا يوماً جزءاً من العالم العثماني تستعيدها

(1) عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج 1، (4 أجزاء: بولاق -- 1879)، ص 50.

وبألم عميق رواية «جسر على نهر درينا» التي نال عليها الكاتب البوسني الصربي ايفو اندريتش جائزة نوبل للآداب سنة 1961⁽¹⁾. ويبرىء اندريتش جوليان بندا الذي كتب سنة 1920 يقول: «المفهوم [الذي يرى] أن الحرب السياسية تتضمن حرباً بين الثقافات هو بكليته اختراع الأزمنة الحديثة، ويضفي على هذه الأزمنة مكانة متدنية في التاريخ الأخلاقي للإنسانية». مضيفاً جملة الشهيرة بأن عصرنا، «هو في الواقع عصر المؤسسة الثقافية للأحقاد السياسية»⁽²⁾.

وفي الجزء الأخير من قصته، عندما يعالج مرحلة ما بعد 1878 عندما حلت النمسا - هنغاريا محل الامبراطورية العثمانية في حكم البوسنة، ينقل اندريتش مناقشة بين طالبي جامعة، أحدهما، توما غالوس وهو ألماني نمساوي انتقل أبوه إلى البوسنة؛ بينما الآخر، فهيم بهجا رفيتش، بوسني مسلم. مناقشتهم كانت أحياناً متحمسة، وأحياناً أخرى مترددة، وها هي الموضوعات الأساسية لهذه المحادثة:

الموضوع هو اختيار بهجارفيتش لدراساته. أما غالوس فقد كان يحاول أن يثبت له بأنه سيكون مخطئاً فيما لو اختار الدراسات الشرقية... بهجارفيتش بقي صامتاً، وهذا الصمت، مثله مثل الخطابات الراقية والحيوية، أثار غالوس... فانشئ وبكل حيويته المعهودة وكل التعابير المنتشرة يومها في الأدبيات القومية، ليوضح مخططات وأهداف حركة الشباب الثورية. كل القوى الحية للعصية القومية يجب أن تستيقظ وتبدأ بالعمل. وتحت ضرباتهم سوف تتفسخ الملكية

Ivo Andric, *The Bridge on the Drina*, translated from the Serbo-Croatian by Lovett E. (1) Edwards (Chicago: University of Chicago Press, 1977).

وكان اندريتش في الأساس تلميذاً للغات السلافية في جامعة فيينا. وقد ترجمت رسالته للدكتوراه حديثاً إلى اللغة الإنكليزية، بعنوان:

The Development of Spiritual Life in Bosnia Under the Influence of Turkish Rule, ed. and tt. Zelimir B. Juricic and John F. Loud (Durham and London: Duke University Press, 1990).

Julien Benda, *The Treason of the Intellectuals*, tt. Richard Aldington (New York: (2) Norton, 1969), pp. 20 and 27 respectively (emphasis in original).

النمساوية - الهنغارية، سجن الشعوب هذا، سوف يتفسخ كما تفسخت
الامبراطورية العثمانية. . وسوف تنتصر القومية الحديثة على التعددية الدينية
والأفكار البالية وسوف تحرر شعوبنا من النفوذ الأجنبي والاستغلال.
وعندها ستولد الدولة القومية⁽¹⁾.

نعيش اليوم مع نتائج هذه الطريقة في التفكير. من الجسر على نهر
درينا، إلى سيرايفو، إلى بيروت، إلى أعالي القدس، إلى جبال كردستان،
التراث العثماني مستمر! كيف يُفهم وكيف يُفسر قد يساعد على تحديد كيف
سيعيش البشر في هذا «النظام العالمي الجديد»، وما إذا كانوا بالأساس قادرين
حقاً على العيش في عصر جوليان بندا ومؤسسة المثقفين للأحقاد السياسية.